المجلة العربية للعلوم الإنسانية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

❖ المنظور الإسلامي للتاريخ: قراءة في المرتكزات والمنهج

أحمد علي السري

❖ الغناء العربي في ضوء الفكر الموسيقي المعاصر: دراسة مقارنة

عبدالله هاني المصري

❖ المكونات السردية في السّيرة الذاتية: كتاب «الاعتبار» نموذجاً

عبدالله محمد الغزالي

❖ سيمياء العنوان في الدرس اللغويّ

عيسى عودة برهومه

❖ مَبْرَمان: حياته وجهوده النحوية

هزاع سعد المرشد

جامعة
الكويت

مجلس
النشر العلمي

ISSN: 1026-95

العدد 97 - السنة 25

شتاء 2007

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

ajh

رئيس التحرير

مرسل فالح العجمي

مديرة التحرير

نـــوال الـهـزاني

هيئة التحرير

د. تـركـي الـمـغـيـض — **د. فـهـمـي جـدعـان**

د. جـمـال الـمـنـيـس — **د. ناصر الدين سعيدوني**

د. يـسـر الـمـدنـي

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

العدد 97/25

تفهرس ملخصات المجلة في:

America: History and Life; E-Psyche Data-Base; CSA Sociological Abstracts, Social Services Abstracts, World Wide Political, Science Abstracts, and linguistics & Language behavior Abstracts; Historical Abstracts; IBZ International Bibliography of Periodical Literature
(Journal, Online, CD-ROM); Index Islamicus; MLA Modern Language Association Abstracts; Periodicals Contents Index.
& Listed in Ulrich's I.P.D. No. 04900455

المجلة العربية للعلوم الانسانية ajh

الهيئة الاستشارية

جوديث بتلر
جامعة كاليفورنيا - بيركلي

كيس فيرستيخ
جامعة نايمخن

ديل جيكيت
جامعة بنسلفينيا ستيت

عبدالله الغذامي
جامعة الملك سعود

غاياتري سبيفاك
جامعة كولومبيا

محمد جابر الأنصاري
جامعة الخليج العربي

جون فرنسيس هيلي
جامعة مانشستر

عبدالجليل التميمي
مؤسسة التميمي

عبدالحميد صبرة
جامعة هارفارد

صالح أبو اصبع
جامعة فيلادلفيا

جميع الأفكار الواردة في المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة

المجلة العربية للعلوم الانسانية ajh

محتويات العدد

كلمة العدد

البحـــوث

❖ المنظور الإسلامي للتاريخ: قراءة في المرتكزات والمنهج
أحمد علي السري ____ 11

❖ الغناء العربي في ضوء الفكر الموسيقي المعاصر: دراسة مقارنة
عبدالله هاني المصري ____ 53

❖ المكونات السردية في السِّيرة الذاتية: كتاب «الاعتبار» نموذجاً
عبدالله محمد عيسى الغزالي ____ 99

❖ سيمياء العنوان في الدرس اللغويّ
عيسى عودة برهومه ____ 141

❖ مَبْرَمان: حياته وجهوده النحوية
هزاع سعد المرشد ____ 169

ملخصات البحوث المنشورة بالإنجليزية

❖ ثقافة اللفت
الفكاهة في كتابات الرحالة ألكسندر كينغليك (1844) و ويليام غيفورد بلغريف (1865)
بيرس سميث ____ 205

المجلة العربية للعلوم الانسانية
العدد 97/ 25

مراجعات وعروض الكتب

❖ الثقافة في الكويت: بواكير واتجاهات
تأليف: خليفة الوقيان، مراجعة: سليمان الشطي 207

❖ فيروز والرحابنة: مسرح الغريب والكنز والأعجوبة
تأليف: فواز طرابلسي، مراجعة: وطفاء حمادي 221

المجلة العربية للعلوم الإنسانية 7 العدد 97/25

ajh 2007

سيمياء العنوان في الدرس اللغوي

عيسى عودة برهومه

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، الجامعة الهاشمية، الأردن

المجلة العربية للعلوم الإنسانية 99

العدد 97/25

الملخص

يهدف هذا البحث إلى استجلاء العنوان في الدراسات اللغوية وفقاً للأنظار السيميائية؛ وذلك أن العنوان نظام سيميائي ذو أبعاد دلالية رمزية وأيقونية، وقد عكفت الدراسات السيميائية على تناول هذا الدال بأبعاده الدلالية في نطاق الدراسات الأدبية وفي الشعر والمسرح خاصة، في حين ظلت الدراسات اللغوية تفتقد إلى مثل هذه الدراسات التي تُغني سماء البحث اللغوي، ومن هنا تأتي هذه المحاولة لتناول هذا الجانب الذي ظل مهملاً.

وطَّأت الدراسة لأهمية السيمياء، والتعرف إلى أبرز المقومات التي قامت عليه، وأهم الاتجاهات التي انبثقت عنها، إذ نهجت في أول طريقها مسارين لا يناقض أحدهما الآخر، حاول الأول تحديد ماهية العلاقة ودرس مقوماتها، وقد مهَّدَ لهذا المنحى الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس، في حين ركَّز الآخر على دراسة توظيف العلاقة في عمليات الاتصال ونقل المعلومات التي تمثلت في مقولات سوسير.

وبعد أن فرغ البحث من استخلاص بعض الجوانب في السيمياء، عُني بالبحث في العنوان باعتباره علامة وإشارة شديدة التنوع والثراء، موضحاً الوظائف التداولية التي سجّلها الباحثون، ومن ثم قام بتطبيق هذه المبادئ على مجموعة من عناوين المصنفات اللغوية بفروعها المتنوعة: كالمعاجم، وفقه اللغة، والنحو والصرف، وتحليلها وفق الرؤى السيميائية.

وفي الخاتمة أبرز البحث جملة من النتائج التي كشفت عن أهمية العنونة في الدراسات اللغوية، وما ارتبطت به من مقاربة النص بغية استقرائه وتأويله.

تقديم

اللغة رصيد معرفي متفق عليه، مقدم في صورة تعاقد أو عقد قرائي تواصلي وتداولي يتخطى الحدود المعجمية القارّة أو الثابتة ضمنياً إلى فضاء إيحائي، واللغة في ماهيتها نظام من العلامات يعبر عن أفكار. وقد نهد العلماء لاستكناه هذا النظام الإشاري، وعُنوا بتصنيف العلامات وتمييزها وتعليلها من أجل إدراك تجليات اللغة وروافدها، وكان من نتاج الدراسات أن بزغ علم قائم برأسه يُعنى بالعلامة هو علم (السيمياء)، فأغنى علوم اللغة. ولكنه من جهة أخرى أثار اضطراباً وقلقاً بسبب عدم استقراره الاصطلاحي في الأصل؛ فتعددت تسمياته الدالة عليه، فحيناً يطلق عليه الدارسون علم السيميولوجيا، وأخرى السيميوطيقا أو السيميائية، وغيرها من تسميات. ولا يعنينا في هذا المقام الاختلاف الحاصل في التسمية والنشأة بقدر ما يعنينا التعرف إلى كنه هذا العلم وأماراته.

تدرس السيميائية العلامات أو الإشارات، «وهي عبارة عن لعبة التفكيك والتركيب، وتحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونولوجياً ودلالياً»[1]، وهي علم حداثي بزغت بذوره بداية القرن العشرين، عندما التقت أفكار كل من فرديناند دي سوسير والأمريكي بيرس دون أيّ معرفة أو اطلاع من كلا الطرفين على الآخر.

حدد سوسير ماهية هذا العلم بدراسة العلامات في دلالاتها الاجتماعية، إذ قال: «يمكننا أن نتصور علماً موضوعه دراسة حياة الإشارات في المجتمع، مثل هذا العلم يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وهو بدوره جزء من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم الإشارات Semiology (وهي لفظة مشتقة من الكلمة الإغريقية Semeion = الإشارة)». ويوضّح علم الإشارات ماهيّة مقوماتها، وما تنطوي عليه من قواعد تتحكم فيها. ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود؛ إلى حد الآن - فترة حياة سوسير - لم يمكن التكهن بطبيعته وماهيته، ولكن له حق الظهور إلى الوجود، فعلم اللغة هو جزء من علم

الإشارات العام، والقواعد التي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة، ويَشْغل العلم الأخير مكانة محددة بين كتلة الحقائق الأنثروبولوجية[2].

وهو بهذا يحصر العلامات داخل أحضان المجتمع، إذ تؤدي وظيفة اجتماعية، ولذلك فإنه حدد العلاقة أو الإشارة أنها تتكون من دال ومدلول يرتبطان فيما بينهما بعلاقة اعتباطية. ولمفهوم الاعتباطية هذا وظيفة مهمة في حفظ الإشارة من زوال مدلولها. . على نحو ما نرى في كلمة «قهوة» التي كانت تعني في الجاهلية الخمرة، وجاء الإسلام فحرَّم الخمرة، وتحوَّلت الكلمة لتدل على المشروب المعروف، كما أن هذه الاعتباطية هي التي تمكِّن الإشارة من التحول الدلالي الذي به تصبح البنية شمولية ومتحولة ومتحكمة بذاتها[3].

في حين رأى بيرس في السيميوطيقا مدخلاً ضرورياً للمنطق والفلسفة في الفترة الزمنية نفسها التي استعمل فيها سوسير مصطلح السيميولوجيا، فيقول: «ليس المنطق بمفهومه العام - كما أعتقد أنني قد أوضحت - إلا اسماً آخر للسيميوطيقا (semiotic)، والسيميوطيقا نظرية شبه ضرورية أو نظرية شكلية للعلامات، وعندما أقول إن النظرية «شبه ضرورية» أو أنها شكلية فإني أعني بذلك أننا نرصد طبيعة العلامات كما نعرفها، ومن هذا الرصد، ولن أعترض على تسميتها بالتجريد، فنحن إلى جملة قد تكون خاطئة خطأً واضحاً. وبناء على ذلك تكون تلك الجمل بمعنى من المعاني غير ضرورية، وذلك طبقاً لما تستوجبه طبيعة العلامات المستخدمة في الفكر العلمي «أو لما يمكن أن نسميه فكراً قادراً على التعليم من التجربة. أما عملية التجريد فهي في ذاتها نوع من الرصد، والمَلَكة التي أسميتها بالرصد التجريدي هي مَلَكة لا مكان لها في نظريات الفلاسفة. . . . »[4].

وقد عمل بيرس على تقسيم العلامات إلى ثلاثة أقسام

1 - **الأيقون Icon**: وهي العلامة التي تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها الطبيعة الذاتية للعلامة فقط.

2 - **المؤشر** Index: وهي العلامة التي تشير إلى الموضوعة التي يعبر عنها عبر تأثرها الحقيقي بتلك الموضوعة. والمؤشر يقوم بصفته متأثراً بالموضوعة، فالمؤشر يتضمن نوعاً من الأيقون مع أنه أيقون من نوع خاص.

3 - **الرمز** Symbol: وهو علامة تشير إلى الموضوعة التي تعبر عنها عبر عُرْف غالباً ما يقترن بالأفكار العامة التي تدفع إلى ربط الرمز بموضوعته. فالرمز نمط عام[5].

فالسيموطيقيا البيرسية لا ينصرف كامل اهتمامها إلى العلامة فحسب، بل يتخطاها إلى ما تنتجه هذه العلامة مما هو ثانوي وغير أساسي، إلى درجة أن تصبح ذات قيمة: لذا ذهب محمد السرغيني إلى التمييز بين نوعين من السيميوطيقا: سيميوطيقا بيرس، والسيميوطيقا المعاصرة التي لا تفصل العلامة اللغوية عن غيرها، وتعمل على إعادة صهر الأنساق اللغوية والنماذج المنطقية والرياضية، وترتكز على علم هو موضوع دراستها وتحليلها. كما أنها تستهدف بالبحث نماذج الدلالة، وتتخذ مجالها في النص بوصفها ممارسة دالة، ومن هنا فتح المجال للحديث عن سيميوطيقا بنيوية دعا إليها غريماس، وعن سيميوطيقا عرفانية ومنطقية دعت إليها جوليا كريستيفا[6].

وانطلاقاً من هذا بدأ ينظر إلى سيميوطيقا بيرس باعتبارها سيميوطيقا التمثيل والتواصل والدلالة في آن واحد[7]. كما يمكن اعتبارها اجتماعية وجدلية، فهي تعتمد على علم الاجتماع، كما أنها تتسم بأبعاد ثلاثة: تركيبي، ودلالي وتداولي..[8].

إذن، فقد مهّد كل من سوسير وبيرس الخطى أمام اللغويين في البحث عن المسألة، وإرساء منطلقات هذا العلم الجديد. ومن هنا تشعبت اتجاهات السيميائية كلٌّ ينظر إليها وَفْق رؤيته المتشكّلة للظاهرة، فذهب رولان بارت إلى قلب الاقتراح السوسيري، قائلاً: «وبصفة عامة يجب، منذ الآن، تَقَبُّلُ إمكانية قلب الاقتراح السوسيري: ليست اللسانيات جزءاً، ولو مفضلاً، من علم الدلالة العام، ولكن الجزء هو علم الأدلة، باعتباره فرعاً من اللسانيات، وبالضبط،

ذلك القسم الذي سيتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة، وبهذه الكيفية تبرز وحدة البحوث الجارية اليوم في علم الأناسة والاجتماع، والتحليل النفسي، والأسلوبية. حول مفهوم الدلالة»[9]. وخلافاً لما جاء به سوسير فإنه يرى أن الدلالة جزء من اللسانيات وليست اللسانيات جزءاً منها؛ إذ تشكل الدلالة تبعاً لنظرته منطلقاً للبحث السيميولوجي في كثير من الحقول المعرفية؛ إذ لا بد لها من الوقوف على مسألة الدلالة.

وإن كان يرى أن الدليل الدلائلي بالمقارنة مع الدليل اللساني، يتكون من دال ومدلول وهو ما قال به سوسير، إلا أنه يميزه الماهيات، إذ العديد من الأنظمة الدلائلية ماهية[10].

وبرزت على صعيد آخر سيميولوجيا الثقافة، التي تبرز فيها الظواهر الثقافية بوصفها موضوعات تواصلية وأنساقاً دلالية. وذهب إمبرتو إيكو إلى أن الثقافة لا تنشأ إلا حينما تتوافر فيها الشروط التالية:

1 - حينما يسند كائن مفكر وظيفة جديدة للشيء الطبيعي.

2 - حينما يسمى ذلك الشيء باعتباره يستخدم إلى شيء ما.

3 - حينما نتعرف على ذلك الشيء باعتباره شيئاً يستجيب لوظيفة معينة وباعتباره ذا تسمية محددة، ولا يشترط استعماله مرة ثانية، وإنما يكفي مجرد التعرف عليه[11].

لذا راح إمبرتو إيكو يطوّر نموذجاً سيميائياً اتصالياً بإضافة الشفرات الصغرى (sub codes) التي تسهم في فك شيفرات الرسالة من قبل القارئ، وبما ينتج فهم الرسالة وإعادة تركيب شفرة المرسل وخلقها من جديد. وهو يؤكد أن أي نظرية للمعنى تنطوي على نظرية للعمليات وأخرى للبنى. فالسيميولوجيا عنده ذات شقين يؤكد أحدهما الاستدلال. والآخر الاتصال. .[12].

وذهب روسي لاندي إلى أن السيميولوجيا داخل محيط البرمجة الاجتماعية لكل السلوكات تحكمها ثلاثة أبعاد، هي:

1 - أنماط الإنتاج (مجموع قوى الإنتاج وعلاقاته).

2 - الأيديولوجيا (تخطيطات اجتماعية لنمط عام).

3 - برامج التواصل (التواصل اللفظي، وغير اللفظي).

فالسيميولوجيا من وجهة نظره علم شامل للدليل والتواصل ينبغي أن يعنى بالإنتاج والاستهلاك، فهي مفضية إلى البرمجة الاجتماعية للسلوك الإنساني[13].

وهذا ما أكده روبرت شولز حين ذكر مجال اهتمام السيميولوجيا: «السيمياء هي دراسة الشفرات - الأوساط - لذا لا بد لها أن تهتم بالأيديولوجية وبالبنى الاجتماعية - الاقتصادية، والتحليل النفسي وبالشعرية وبنظرية الخطاب. وقد تأثر تطورها من الناحية التاريخية، بقوة، بالبنيوية الفرنسية، وبما بعد البنيوية، أي بالأنثروبولوجيا البنيوية وبحفريات ميشيل فوكو وبالفرويدية الجديدة عند جاك لاكان، ومعلم الكتابة عند جاك ديريدا..»[14].

ونظراً لأهمية السيميائية، فقد تضاعفت العناية بهذا العلم، وتعددت من ثم الاتجاهات السيميائية، فمنهم من أضاف إلى الاتجاهات السابقة اتجاه التواصل، وهو اتجاه السيميوطيقا المعتمدة على أبحاث سوسير وهيلمسليف، وبيرس، التي وسعت من مفهوم السيميوطيقا الذي لا يتعدى أنظمة العلامات إلى مصطلح السيميوطيقا الذي يقصد به علم الأنظمة الدلائلية. واتجاه السيميوطيقا المادية الذي مثلته الباحثة جوليا كريستيفا؛ إذ عملت على التوفيق بين اللسانيات والتحليل الماركسي، والسيميولوجيا الرمزيّة التي تدرس هذه السيميولوجيا الأنظمة الرمزية محل أنظمة العلامات في الاتجاهات والمدارس السيميولوجية الأخرى، والاتجاه الروسي الذي شكلته حلقة موسكو وحلقة أبويار... وغيرها[15].

وقد عُني كل من كاسير وبنفينست بسيميولوجيا اللغة؛ إذ أشار كاسير إلى أن اللغة هي النظام السيميائي الوحيد الذي يستطيع أن نتحدث فيه عن بقية الأنظمة وعن اللغة نفسها. ورأى بنفينست أن النظام السيميولوجي يتميز بخصائص، هي: كيفية تأدية الوظيفة ومجال صلاحيته، وطبيعة علاماته وعددها. ونوعية توظيفه، كما أن هذه الأنظمة تحكمها علاقات تتمثل في مبدأ

عدم الترادف بينها. وإذا انتمت علامة واحدة إلى نظامين مختلفين فإن قيمة العلامة التي تكمن في الاختلاف الوظيفي للعلامة، فقيمة العلامة فقط في إدخالها في النظام الذي تنتمي إليه[16].

وهذا التعدد الملحوظ في اتجاهات الدراسات السيميائية كان في الدلالة على أهمية الدور المتزايد للأنظمة العلامية في تحليل اللغات الطبيعية ومظاهر الحياة الاجتماعية والطبيعية والعلوم والآداب والفنون كافة، وهو ما جعل بعض الباحثين يقول: «حتى ليمكن القول إن العلامة قد تضخمت واجتاحت الحقول كافة، وهي الآن تتحول تدريجياً إلى (متعالٍ) جديد ينافس الكثير من العلوم والفلسفات في الادعاء بإمكانية تقديم تحليل شمولي لكافة مظاهر الحياة والكون والسلوك»[17].

وفي ضوء هذه الأهمية المتزايدة التي حظيت بها السيميائية، ننهج في هذه الدراسة شرعة سيميائية لاستكناه العنوان في الدرس اللغوي العربي، وارتأيتُ قبل أن أشرع في الدراسة التطبيقية، أن أمهّد لسيمياء العنوان ووظائفه.

فقد حظي العنوان بأهمية كبرى في الدراسات السيميولوجية، إذ يعدُّ نظاماً سيميولوجياً ذا أبعاد دلالية شديدة التنوع والثراء، وأخرى رمزية، فهو عتبة النص للمتلقي، وأول لقاء مادي بين المرسل والمتلقي، فالعنوان إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي يحمله المتلقي باعتباره مفتاحاً يلج به أغوار النص قَصْدَ محاكاتها وتأويلها. وقد ظهر في الآونة الأخيرة كثير من الدراسات اللسانية والسيميائية تهدف إلى دراسة العنوان وتحليله من نواحيه التركيبية والدلالية والتداولية[18].

ويسهم تحديد وظيفة العنوان في فهم النص وتفسيره، ولا سيما إذا كان نصّاً غامضاً يفتقر إلى الانسجام والتواصل المنطقي؛ إذ ربط كوهن العنوان بالشعر والانسجام والوصل والربط المنطقي، في حين رأى إمكانية الاستغناء عنه في الشعر لبنائه على الاتساق والانسجام. كما رأى بارت أن العناوين عبارة عن أنظمة دلالية سيميولوجية تحمل في طياتها قيماً أخلاقية واجتماعية وأيديولوجية[19].

والعنوان بما هو دلالة وعلامة فإنه إيحاء شديد التنوع والثراء، مثله مثل النص بل عدَّه جيرار جينيت نصّاً موازياً، فإذا كان النص نظاماً دلالياً وليس معاني مبلغة، فإن العنوان كذلك نظام دلالي رامز له بنيته السطحية ومستواه العميق مثله مثل النص تماماً، كما أن أندريه مارتينيه ذهب إلى أن العنوان يشكل مرتكزاً دلالياً يجب أن ينبني عليه فعل التلقي، بوصفه أعلى سلطة تلقٍّ ممكنة، ولتميزه بأعلى اقتصاد لغوي ممكن، ولاكتنازه بعلامات إحالة (مقصدية) حُرَّة إلى العالم، إلى النص، إلى المرسل..[20]. وحظي العنوان لدى ياكبسون بوظائف: انفعالية، ومرجعية، وانتباهية، وجمالية، وميتا لغوية[21].

وارتبطت اللغة بالعنوان ببعض الدراسات التي تنبهت لأهمية دراسة العنوان باعتباره عنصراً من لائحة عناصر أخرى تشكل أسلوبية النص، وفي هذا السياق «فإن علم اللغة النصي يبحث في العلاقة بين مضمون النص وعنوانه، وينطلق وفي ذلك من أن عنوان النص يتأثر باعتبارات «سيميولوجية» و«دلالية» و«براجماتية»، فللعنوان بما في ذلك العناوين الفرعية، قيمة «سيميولوجية» أو «إشارية» تفيد في وصف النص ذاته»[22].

ومن الوظائف التي أشاد بها الدارسون وظيفة التعيين (Desination) وهي الوظيفة التي تشترك فيها الأسامي أجمع، فهي ليست مجرد ملفوظات تفرق بين المؤلفات والأعمال الفنية، بل هي رواسم تهدي إلى الكتاب أو المنحوتة أو الرسم، ولكنه يعترف بأن الوظيفة قاصرة أمام اجتهاد المؤلف واختياره. وأما حد المسؤول أو القارئ العارف فيرى أن العنوان تعريفاً وفضلاً وتنويهاً ودلالة وإظهاراً هي جَماع وظائف العنوان. وإلى جانب هذه الوظيفة وظائف أخرى كالإعلان عن المحتوى، ووظيفة التجنيس التي تكشف عن نوع النص وجنسه ونمطه. ومنهم من أشار إلى الوظيفة الإيحائية عند روبرت شولز، أو التناصية عند كريستيفا وبارت وجينيت، أو الإحالة عند ميشيل فوكو، ومقابل الإحالة نجد من يعطي العنوان وظيفة الاستحالة، ويقصد بها أن العنوان لا يحيل إلى مرجعية معروفة، وإنما يقيم قطيعة مع إحالته، ولا يحتفظ سوى بمفهوماته الرمزية المتحجبة[23].

إن الوظائف التي أنيط بها العنوان متعددة، وذلك لاختلافها من حيث ماهية العنوان في كونه عنواناً لكتاب أو بحث أو عملاً إبداعياً. فلكل اتجاه عناوينه التي تعبر عن فلسفته ونظرته للحياة والطبيعة، وغير ذلك.

وذهب بعضهم إلى أن العنوان أشبه ما يكون بـ «بطاقة تعريف الهوية». . . وهو مفتاح تأسيسي يتيح - إن أحسن استخدامه - مزيداً من الفرص الاحتمالية لاستكشاف هوية (النص). .[24].

وفي سياق الإلماعات الآنفة، نتناول دراسة لمجموعة من عناوين الكتب اللغوية على تنوعها. نلتمس فيها التمثلات السيميائية، وما مدى ارتباط الدال بالمدلول (العنوان بمحتوى الكتاب)، والوقوف عند تشكُّل الرؤى اللغوية لسيمياء العنوان في الدرس اللغوي عند القدماء بالتحديد. ورأيت أن تتوزَّع الدراسة إلى محاور تتطلع إلى جوامع مشتركة بين هذه الكتب على تنوع موضوعاتها، وجاءت المحاور على النحو الآتي:

الإحالة المرجعية للأبعاد اللغوية

علَّلَ بعض أصحاب المصنَّفات اللغوية سبب إطلاقه هذا العنوان دون غيره على نحو ما نجد في معجم التقفية في اللغة لأبي بشر بن اليمان البندنيجي (ت284هـ) «هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر، وسمّاه بذلك لأنه مؤتلف على القوافي والقافية: البيت من الشعر»[25].

فالبندنيجي شاعر يرتزق بصنعته، ولا بد من توفير أدواتها، والقافية أهمها، ومعاناته لها كان السبب في صنع المعجم، كي يوفِّر له ولغيره من الشعراء مؤونة الصنعة في النظم والقافية. فأراد بصنيعه أن يمد العون للشعراء، ويسهل عليهم انتقاء المفردات التي تلائم قوافي قصائدهم؛ فالعنونة عنده إشارة سيميائية ذات أبعاد دلالية موحية.

وكذلك معجم جمهرة اللغة لابن دريد (ت321هـ)، إذ قال صاحبه: «وإنما أعرناه هذا الاسم؛ لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي المستنكر»[26]؛ فالجمهرة من كل شيء معظمه ومجمله، فوقع الاختيار على

مجمل كلام العرب، واستبعاد ما يراه منكَّراً على اللغة مستوفياً لرغائبها، بعيداً عن المستهجن.

أما الأزهري (ت370هـ) صاحب تهذيب اللغة، فيقول: «وقد سميت كتابي هذا تهذيب اللغة؛ لأني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل من لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيَّرها الغُتْم عن سنتها، فهذّبت ما جمعت في كتابي في التصحيف والخطأ بقدر علمي»[27].

فإذا ما علمنا أن التهذيب في اللغة هو التنقيح وإزالة الخطأ، أدركنا أن سيمياء العنوان دال على مضمون معجم الأزهري كما علّل.

كذلك علّل أحمد بن فارس (ت395هـ) تسمية معجمه مجمل اللغة، إذ يقول: «وسميته مجمل اللغة؛ لأني أجملت الكلام فيه إجمالاً»[28] فتخيّر لكتابه عنواناً يعد سمة دالة على ما فيه؛ إذ يشير إلى طريقة المؤلف في إجمال الكلام دون البسط.

وذكر الفيروزآبادي (ت817هـ) في تسمية معجمه «القاموس المحيط»: «وأسميته القاموس المحيط؛ لأنه البحر الأعظم، لما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة وأردت أن يظهر بادئ بدء فضل كتابي هذا عليه»[29].

ولعل هذه التسمية تحمل دلالات ظاهرة؛ إذ إن القاموس في اللغة هو البحر العظيم، وهو العنوان يوفر للكتاب دعاية له، قصد التأثير في المتلقي بالإقبال على قراءة الكتاب.

وذكر بطرس البستاني (ت1883هـ) في كتابه «محيط المحيط»: «هذا المؤلَّف يحتوي على ما في محيط الفيروزآبادي، الذي هو أشهر قاموس للعربية، من مفردات اللغة وعلى زيادات كثيرة، فقد أضفت إلى أصول الأركان فيه فروعاً وتفاصيل شتّى، وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من المسائل، والقواعد والشوارد، وغير ذلك مما يتعلق بمتن اللغة، . . فاستحق أن

يسمى محيط المحيط»[30] فلم يرد صاحب المعجم أن يسميه محيطاً، بل محيط المحيط ليكون أشمل وأوسع في دلالته على تفرُّع المادة اللغوية، وفي ذلك إحالة إلى أبعاد دلالية، وإحالة مرجعية للأبعاد اللغوية.

ويبين ابن فارس العلة التي دفعته إلى إطلاق عنوان «الصاحبي في فقه اللغة»: «وإنما عنونته بهذا الاسم لأني لما ألفته أودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة - الصاحب بن عبّاد - تجملاً بذلك وتحسناً»[31]. وبهذا يغدو العنوان إحالة مرجعية ومتناصاً مع شخصية الصاحب بن عبّاد، وتعيدنا إلى التساؤل عن علاقة هذا العنوان بالوزير الصاحب بن عبّاد، فيأتي هذا التعليل بتوضيح المبهم، إذ حُدِّدَ العنوان في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. فراح يجمع رسائل في موضوعات مختلفة من حقول اللغة. فحمل العنوان إحالة مرجعية لغوية وإلماعة إلى مضمون الكتاب.

وفي متخيّر الألفاظ ينهج ابن فارس النهج عينه في الصاحبي، فيقول: «وإنما نحلته هذا الاسم؛ لما أودعته من محاسن كلام العرب، ومستعذب ألفاظها، وكريم خطابها منظوم ذلك ومنثوره، ولم آلُ جهداً في الانتقاء والانتخاب والتخيّر....»[32].

ويشير ابن دريد صاحب كتاب «الملاحن» إلى تسمية كتابه بقوله: «هذا كتاب ألَّفناه ليفزع إليه المُجْبَر المضطهد على اليمين المُكْرَه عليها، فيعارض بما رسمناه، ويضمر خلاف ما يُظهر ليسلم من عادته الظالم. ويتخلص من جنف الغاشم، وسميناه كتاب الملاحن، واشتققنا هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة التي لا يشوبها الكدر... ومعنى قوله الملاحن لأن اللحن عند العرب الفِطنة، ومنه قول النبي - ﷺ - لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»؛ أي أفطن لها، وأغرض عليها. وذلك أن أصل اللحن عند العرب أن تريد الشيء فتورّي عنه بقول آخر»[33].

ولعله بدا للسامع عجمة اللفظة (العنوان)، إلا أن ابن دريد كشف عن فصاحتها، بما يوحي بدلالة العنوان على مضمونه، وإحالته المرعية لأبعاد لغوية.

أما الثعالبي (ت429هـ) مؤلف كتاب فقه اللغة وسر العربية، فيقول في تسمية الكتاب: «وقد اخترت لترجمته (العنوان) ما أجعله عنوان معرفته ما اختاره أدام الله توفيقه من (فقه اللغة) وشفّعته (بسر العربية) ليكون اسماً يوافق مُسمّاه، ولفظاً يطابق معناه»[34] فهو يستأنس بابن فارس في تسمية كتابه بفقه اللغة، والفقه بالشيء العلم به، فجاء العنوان موافقاً لمضمونه، ومخلصاً لفحواه.

ويشير الجواليقي صاحب «المعرَّب» إلى ماهية كتابه، بقوله: «هذا كتاب نذكر فيه ما تكملت به العرب من الكلام الأعجمي، ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول - ﷺ - والصحابة التابعين، وذكرته العرب في أخبارها وأشعارها، ليُعرف الدخيل من الصريح»[35] فالمعرَّب ما تكملت به العرب وأدخلته في لغتها فصار عربياً. فبذلك يستوحي الجواليقي عنوان كتابه من مادته، فجاء مجلِّياً موضوعه لا يحتاج المتلقي إلى تكلُّف ومرواغة الذهن في معرفته.

وكذلك قال أبو الربيع تقي الدين المصري (ت614هـ) صاحب كتاب اتفاق المباني وافتراق المعاني: «ومعان مفترقات يُعبِّر عنها بألفاظ منتقيات، وهذا الباب قليل، وتأليف مثله غريب. فألفنا ما وجدنا فيه من العشرات إلى ما يزيد عليه، وسميناه بما رسمناه منها، وخشينا أن يتوهم علينا تقصير فيما ضمَّنّاه من المئات مما أتى به عمر من العشرات[36]؛ فالعنوان لا يخرج عن مضمون الكتاب بناء على تعريف المؤلف بذلك، وكذلك مادة الكتاب شاهدة عليه.

وقد تفنَّنَ ابن جني (ت392هـ) في استعمال العنوان، فنجد العنوان يحتوي في ذاته صفات خاصة به، نحو الخصائص، واللُّمع، وسر صناعة الإعراب، فحملت هذه العناوين صفة تميزها من غيرها، وتثير في المتلقي اكتشاف كنه، نحو: (الخصائص) جمع خصيصة وهي الصفة التي تميّز الشيء وتحدده. كما أنه ينظر إلى علمه بعين الجلال، فيقول: «واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صُنِّفَ في علم العربية، وأذهبه في طريق القياس، وأعوده عليه بالحيطة والصون، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة»[37].

وكأنه أراد به أن يكون صفات وخصائص مميزة في علم اللغة بما أودعه

فيها. وهذه الخصوصية التي حظي بها هذا المؤلف تنتقل إلى مؤلفاته الأخرى (اللُّمع) في إشارة منيرة ولمعة لطيفة في مسائل النحو، ويتخذ لمؤلَّف آخر عنوان (سر صناعة الإعراب)، وكأنه الأوحد في هذه الصناعة؛ لذا رأى أن يكشف عن هذه الصناعة في كتابه، ويطلق عليه هذا العنوان ليشير إلى ماهيته، ويتمثل مسائله، وفي ذلك إلماح إلى إحالة مرجعية لغوية. ولعل سر صناعة الإعراب، أغرى أبا البركات الأنباري (ت577هـ) فنسج في علم العربية مؤلفاً رأى أنه يحمل خصوصية ومكامن جمعها في مؤلَّف، وأطلق عليه (أسرار العربية)، فبذا تغدو العربية محضناً للأسرار التي خُصَّ ببيانها أبو البركات الأنباري، فشرع في بيانها في مصنَّف ووسمه أسرار العربية، وفي ذلك إشارة إلى مضمون الكتاب، وإغراء بقراءته.

ويقدّم الزمخشري (ت538هـ) لعنوان كتابه (المفصَّل في صنعة الإعراب) فيقول: «وقد ندبني ما بالمسلمين من الإرب إلى معرفة كلام العرب ما بي من الشفقة والحدب على أشياعي من حفدة الأدب لإنشاء كتاب في الإعراب، محيط بكافة الأبواب، مرتب ترتيباً يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعي، ويملأ سجالهم بأهون السقي، فأنشأت الكتاب المترجم بكتاب المفصَّل في صنعة الإعراب»[38].

ويحمل العنوان إحالتين سيميائيتين الإحالة الأولى دلالية احتفاء بالكتاب وإغراء للقرّاء، وهذا ما يوفره صدر العنوان (المفصّل)، وإحالة مرجعية للإشارة إلى فحوى الكتاب وهذا ما حققه عجز العنوان (في صنعة الإعراب).

ويعلل ابن عصفور الإشبيلي (ت669هـ) تسمية كتابه المُمتِعُ الكبير في التصريف، بقوله: «سمّيته الممتِع ليكون اسمه وفق معناه، ومترجماً عن فحواه، ووسمته باسم من إن ذُكِرت العلوم فهو مالك عنانها، وفارس ميدانها، أو ذكرت السماحة فهو تاريخها وحدقتها وإنسانها، أو عُدَّ المجد الموروث والمكتسب ناهيك به شرفاً سابقاً...»[39].

وأوضح أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) في «المبدع في التصريف» مرماه وغايته من تصنيفه، بقوله: «وسميته المُبْدِع الملخص من الممتع، ولم أتعرض للتنبيه على ما فيه من الأعراض، بل أبرزته بعين المفضي عنه والراضي، وإن

فسح الله في العمر، وساعدني سابق القدر وضعت في علم التصريف ما أنا له آمل، وعلى تحصيل مواده من قديم الزمان عامل»[40].

فكتاب أبي حيّان استدراك وشرح لكتاب ابن عصفور (الممتع) ولكنَّ أبا حيان منح كتابه عنواناً لافتاً (المبدع) ليشير إلى الإضافة التي حققها كتابه، وفي هذا لفت إلى أهمية الكتاب، وإلماح إلى فحواه ومضمونه كما وفره العنوان كاملاً.

لعل كثيراً من العناوين التي أشرنا إليها آنفاً قد علَّلت سبب التسمية، فتكوكبت هذه العناوين في محور الإحالة المرجعية للأبعاد اللغوية، ولكن ثمة مصنفات لم يعلل أصحابها سبب التسمية، وأخال أنهم وجدوا عنوانها واضحاً دالاً على ماهيتها مما لا يحتاج إلى إيضاح وبيان، على نحو ما نجد في كتاب العين للخيل بن أحمد (ت174هـ) فيغلب الظن أن تلاميذ الخليل أطلقوا هذا العنوان على الكتاب؛ لأن العين هو الحرف الحلقي الذي بدأ فيه كتابه، بعد أن وجد الخليلُ الهمزةَ يلحقها النقص والتغيير والحذف، والألف لا تكون في ابتداء كلمة إلا زائدة أو مبدلة، كذلك الهاء فإنها مهموسة خفية لا صوت لها، فوجد بعد ذلك العين في الحيّز الثاني من الحلق أنصع الحرفين فابتدأ به ليكون أحسن في التأليف[41].

أما ابن منظور (ت711هـ) صاحب لسان العرب، فيصرّح بالدافع من تأليفه بقوله: «فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية، وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية، . . . وذلك لما رأيته قد غلب، في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعدُّ لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية. . .»[42] جاء لسان العرب في وقت كانت الأمة العربية في أمسّ الحاجة إلى حفظ لغة السلف والذود عن حياضها، فكأن ابن منظور أراد أن يحول دون ضياع هذا الموروث اللغوي، ليظل موسوعة العرب المعجمية التي تميزت بالدقة والإتقان، والجمع والاستقصاء، لأن اللسان هو اللغة، والعربية في زمن ابن منظور لابسها

الضعف وانصرف أهلها عنها إلى لغات أخرى، فرغب المؤلف في أن يضع سِفْراً جامعاً للسان العربي، فكان هذا المعجم الواسع، واكتسى العنوان بغُلالة المضمون وأومأ إلى أبعاد لغوية.

ويوحي كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت (ت244هـ) إلى أنه وضع لغاية قصد منها المؤلف مساعدة الناس على ضبط نطقهم بالفصحى وتقويم ألسنتهم بعد أن شاع اللحن وكثر الخطأ، فراح يعرض لعدد كبير من الكلمات في اللغة العربية التي يكثر تداولها، فالعنوان يلمح إلى مضمون الكتاب.

وكذلك نجد عند السيوطي (ت911هـ) في كتابه (المزهر في علوم اللغة وأنواعها) أنه أطلق عنوان (المزهر). وفي ذلك احتفاء بالكتاب ودعوة لاقتنائه، ثم أردف المؤلف عنوانه ببيان مبحثه (في علوم اللغة وأنواعها) فيعلم المطَّلِع أن الكتاب في فحواه يعالج قضايا اللغة.

كما يشير عنوان كتاب (الأضداد في اللغة) لأبي بكر بن الأنباري (ت328هـ) إلى بحث في الألفاظ التي تحتمل وجوهاً مختلفة من المعاني تفهم من سياق الكلام ومناسباته، فيبرز العنوان دالة سيميائية على مضمون الكتاب ومحتواه.

وهذا عينه ما صنعه أبو هلال العسكري (ت395هـ) في كتابه (الفروق في اللغة)، فتخيَّر عنواناً دالاً على ماهيَّة كتابه؛ إذ يبحث في مفردات يعالج الفرق بينها، وهي مفردات في اللغة والأدب والنحو والصرف.

وذهب أبو القاسم المغربي (ت418هـ) إلى اختصار إصلاح المنطق لابن السكيت وتنخيله في كتاب سمّاه (المنخَّل مختصر إصلاح المنطق)، فتساوق العنوان مع مضمون الكتاب.

ويطالعنا كتاب (المُقْتَضَب) للمبرِّد (ت285هـ) فنلمح من العنوان أنه اختصار لكتاب سيبويه وتهذيب له، وحين نمضي في قرن المضمون بالعنوان نخلص إلى أن المبرِّد أراد بالمقتضب أن يكون كتاباً سهلاً واضحاً مبسَّطاً في مسائل النحو والصرف، خلافاً لما جاء به سيبويه في (الكتاب) من البسط والإطالة، أو أنه أراد أن يكون مختصراً مقتضباً لما جاء به سيبويه؛ إذ يتبدى

للناظر كثرة اعتماده على سيبويه وإيراد مسائله. لذا عمل محقق الكتاب على إحصاء المسائل التي اعتمد فيها المبرّد على سيبويه وأثبت هذه المسائل في حواشي المقتضب. وفي هذا مرد إلى المضمون وإحالة مرجعية إلى أبعاد لغوية.

ونمضي قدماً ليتضح لنا من خلال بعض العناوين مدى التطور الذي أصاب علوم اللغة في النحو؛ إذ راجت فكرة تخصيص المسائل النحوية بكتب مستقلة تشبع المسألة بحثاً على ما نجد عند ابن الأنباري في كتابه (المذكر والمؤنث) الذي راح يبحث فيه عامل الجنس في اللغة كما يتضح من العنوان. فيغدو العنوان دالة سيميائية بارزة في الإنباء عن ماهية الكتاب، ويكون حلقة وصل مهمة بين المرسل والمتلقي.

وكذلك في عنوان (الإيضاح في علل النحو)، وإن كان الكتاب دراسة في قضايا النحو، مع هذا يشير العنوان إلى مباحث في التعليلات النحوية، والعنوان بحد ذاته إشارة إلى الوضوح في تناول المسائل وطرقها.

ونلحظ من خلال ما عرضناه من عناوين أن ثمة جوامع مشتركة بينها؛ إذ كانت تحيل هذه العناوين إلى مرجعية لغوية، وجاءت لتتسق ومضمون الكتاب دون أن تؤسس لفضاء تأويلي، فكانت العنونة مخلصة لمسمياتها.

الإحالة إلى الثقافة الدينية أو الشعرية أو البلاغية في العنونة

ليس مستغرباً أن يظهر الأثر الديني في عناوين المصنفات اللغوية؛ إذ إن علوم العربية كان هدفها الأسمى خدمة القرآن الكريم. ومثّل ابن السراج (ت316هـ) بعنوان كتابه مدى تأثر علم النحو بعلم الفقه وأصول الدين، لذا أطلق على كتابه (الأصول في النحو) على شاكلة الأصول في الفقه والدين. وبذا حاكى علماءُ النحو علماء الدين والفقه في علومهم؛ نظراً لأصالة هذه العلوم وشرفها. وظل هذا التقليد ماثلاً لفترة متأخرة، إذ نجد السيوطي يطلق على كتابه (الاقتراح في أصول النحو). ولا ضير في ذلك وهو العالم الذي راح يمزج في التأليف بين علوم العربية وعلوم الدين. فحققت العنونة إحالة إلى ثقافة دينية وإشارة إلى شرف هذين العلمين وسموهما.

ويطل علينا الجوهري (ت577هـ) في معجمه (تاج اللغة وصحاح العربية) فَيَسِمُ معجمه بأنه إكليل اللغة وصحاح العربية. وربما أراد أن يجاري بلفظه صحاح أصحاب الحديث على نحو ما نجد في صحيح البخاري وصحيح مسلم والصحاح الأخرى، فيكون العنوان حاملاً دلالة الصحة في شكله ومضمونه.

وأسبغ أبو البركات الأنباري (ت577هـ) على عنوان كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) بُعداً فقهياً أسوة بما هو متحصَّل من خلافات فقهية بين المذاهب، فيظن المتلقي أن العنوان يشي بمضمون الكتاب، إلا أنه يتمنَّع في انزياحه المرجعي حين يجد أن الكتاب يضم إحدى وعشرين ومائة مسألة في النحو أيَّد فيها المؤلف المذهب البصري، ما خلا سبع مسائل أيَّد فيها المذهب الكوفي، وزيادة على ما وفره العنوان من محاكاة المصنفات الدينية، استدعى العنوان طاقة موسيقية، وتأثر بعلوم البلاغة (الإنصاف/ الخلاف).

وراعى الزمخشري الثقافة البلاغية حين وسم معجمه بأساس البلاغة، وقد ينصرف ذهن القارئ حين يقرأ العنوان إلى أن المعجم في قضايا البلاغة حسب، إلا أنه حين يمضي في قراءة المعجم يلحظ أن صاحبه قد أودعه بُعداً لغوياً ملتفتاً إلى المعاني الحقيقية والمجازية للمفردات، وهنا ينزاح العنوان - إلى حد ما - عن دلالته.

ونلمح أثر المحسنات البديعية في معجم الزبيدي (ت1205هـ) (تاج العروس من جواهر القاموس)، ويتجلى أثر المحسنات بوضوح في عناوين المنصفات النحوية والصرفية ولا سيما المتأخر منها؛ إذ شاعت علوم البلاغة، وسارع العلماء - متأثرين بما هو سائد - في المنافسة في تفتيق عناوين تتكئ على جَرْس موسيقي بلاغي، نحو ما نجده في كتب الصرف: (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) لابن مكي الصقلي (ت501هـ) و(نقعة الصديان فيما جاء على فعلان) للحسن بن حيدر (ت650هـ). و(ملامح الألواح في شرح مراح الأرواح) لبدرالدين العيني (ت855هـ).

وكذلك ما نجده في كتب النحو، مثل: (اللباب في علل الإعراب) للعكبري (ت611هـ) و(رصف المباني في شرح حروف المعاني) للمالقي

(ت702هـ) و(ارتشاف الضَّرَب في لسان العرب) لأبي حيان الأندلسي (ت745هـ) و(أوضح المسالك على ألفية ابن مالك) لابن هشام (ت761هـ) و(الفصول المفيدة في الواو المزيدة) لصلاح الدين الدمشقي (ت761هـ)، وغيرها.

ولا يخفى علينا ما في هذه العناوين من تصنُّع، والتزام السجع، اقتداء بعلماء الأدب، ومسايرة للصنعة والتزيين والتنميق الطاغية على هذه العصور، فكانت العنونة نمطاً إشارياً وأنموذجاً من نماذج السيميائية اللغوية، وهي جزء من الوسائل التي يعبر بها عن قيم جمالية، ومكنونات موسيقية إيقاعية تنشر إيحاءها في العنونة.

الإحالة إلى الطبيعة والقيم الجمالية

نثرت الطبيعة والقيم الجمالية أثرهما في الإنسان، ولم يكن اللغويون بمعزل عن التأثر فراحوا يتلمسون عناوين مستوحاة من الطبيعة، نحو ما نجده في مصنَّف الصاحب بن عباد (ت385هـ) (المحيط في اللغة)، وهو عنوان أطلقه صاحبه توسُّعاً وتمكُّناً في القدرة على الإحاطة بمفردات اللغة، وهذا شأن من ألف في صناعة المعاجم، كـ (المحكم والمحيط الأعظم) لابن سيده (ت458هـ) و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي، «وذلك لما لهذه الصناعة من وجوب توفُّر الأسباب في إحكامها، لذا أطلقوا عليها أسماء البحر سِعة وامتداداً، وبُعداً في الغور، أو صفة من صفاته...»(43).

وإذا علمنا أن المحيط والبحر الأعظم، تبدّى لنا من يترك العنوان في النفس من سحر وألق، فأغلب العرب في الجزيرة العربية عاشوا في صحراء مترامية الأطراف حيث لا بحار ولا أنهار، فكيف تعرَّف العرب إلى دلالاتها؟ يبدو أن اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم الذين أسلموا أو دخلوا جزيرة العرب، أو ترحل العرب إلى أرض السواد مكَّنَهم من الوقوف عند أسرار البحر، وما يمثله من سعة وتنوّع، وما يزخر به من الأعاجيب والدرر. فكانت رغبة المؤلفين في مصنفاتهم أن يتماهوا مع ما يوفره البحر من عمق وطاقة مكتنزة، فقرنوه بتواليفهم. إذ يذكر ابن منظور في لسان العرب «سمي البحر فجراً لسعته وانبساطه...»(44) فاغتنى العنوان بدلالته الطبيعية وتطلع إلى تعزيز قيم الجمال.

ويذكر أبو حاتم الرازي (ت322هـ) في تقديم كتاب (الزينة في الكلمات الإسلامية العربية): «وسميناه الزينة، إذ كان من يعرف ذلك يتزين به في المحافل، ويكون منقبة له عند أهل المعرفة، ولعل أكثر الناس قد غفلوا عن الواجب عليهم في تعلمها واللازم لهن معرفتها...»(45) ولا بد أن الكاتب كان مُحِقّاً في العنونة لما توحي به من دلالة نفسية في المتلقي.

ويرى ابن الأنباري صاحب (الزاهر في معاني كلمات الناس) أنه استحسن إدخال هذه التسمية في النحو واللغة ليكون مشاكلاً لاسمه...(46) وهذه العنونة تومئ إلى قيمة جمالية توفرها دلالة الزاهر من الانفتاح والانشراح.

ويستدعي أبو الطيب اللغوي (ت351هـ) مظاهر الطبيعة في كتابه (شجر الدر)، ووسمه بذلك «لأنه ترجم كل باب منه بشجرة، وجعل لها فروعاً، فكل شجرة مائة كلمة أصلها كلمة واحدة، تتضمن من الشواهد عشرة أبيات [من الشعر]، وكل فرع عشر كلمات، فيها من الشواهد بيتان إلا شجرة ختم بها الكتاب لا فروع لها ولا شاهد فيها...»(47) فالعنوان ينم على فحواه، وفيه استجلاب لقيم الجمال ومظاهر الطبيعة.

ووسم أبو عمرو الشيباني (ت206هـ) معجمه الجيم - وهو من بواكير المعاجم - بقيمة جمالية، إذ قيّد الفيروزآبادي في حرف الجيم قول: «والجيم الديباج، سمعته من بعض العلماء نقلاً عن أبي عمرو، مؤلف كتاب الجيم...»(48) فكما أن الديباج يروق للمرء النظر إليه، رمى - كما أظن - أبو عمرو إلى أن يكون معجمه مغرياً للنظر فيه، موظفاً بذلك قيمة جمالية في عنوانه لما ينطوي عليه من أثر في النفس. ووظّف الجوهري أيضاً قيماً جمالية حين عَنْوَنَ معجمه بتاج اللغة وصحاح العربية، كذا فعل الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس، فالتاج منزلته الرأس، وهو معادل موضوعي للإبداع والرفعة، فأحال العنوان إلى قيمة جمالية وحقق بعداً دلالياً ونفسياً.

وتتجلى القيم الجمالية في العنونة في مصنفات لغوية عديدة، نحو: (كنز الحفّاظ في كتاب الألفاظ)، للخطيب التبريزي (ت502هـ) و(المزهر في علوم اللغة)، و(عقود الزبرجد) للسيوطي و(نزهة الأحداق في علم الاشتقاق) لمحمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ) ، و(الدرر اللوامع على همع الهوامع) لأحمد

الشنقيطي (ت1331هـ) فمن الملاحظ أن أصحاب هذه المصنفات عملوا على توظيف الطبيعة في تسمياتهم كالزينة وشجر الدر، وكنز، ونزهة، فالطبيعة في شتى مجالاتها تومئ إلى الأصل، والزينة مرمى كل إنسان وبغيته، والشجر والدر والكنز والنزهة تثير في النفوس الراحة والاطمئنان والهدوء والاستقرار، فيرمي المؤلف أن تمنح العنونةُ القرّاءَ ما تتركه هذه القيم الجمالية المكنونة في الطبيعة، فالنفس تهوى الجمال وترغبه.

وتنبه أحمد الحملاوي (ت1351هـ) إلى الطبيعة وقيم الجمال فوسم كتابه (شذا العَرْف في فن الصرف)، ويقول: «. . .ثم جعلت أميز الصحيح من العليل، وأودع ما اقتطفته من ثمار الكثير السهل القليل، فجاء بحمد الله كتاباً تروق معانيه، وتطيب مجانيه، عباراته شافية، وشواهده كافية. . .»[49].

والعنوان هنا لا يمثل إحالة أيقونية إلى الشيء بوصفه وجوداً أو مرجعاً خارجياً، وإنما يتعدى ذلك ليتحول إلى رمز Symbol، بمفهوم بيرس السيميائي، إذ يوظف الرائحة في العنوان، فحين أطلق الشذا قيّده بإطلاق آخر وهو العَرْف، وربما يرتبط هذا بأبعاد نفسية تتعلق بالمؤلف، لما في هذه الألفاظ من الإيناس وصفاء الخاطر، فربما أوحى هذا العنوان إلى ما تثيره هذه الرائحة في نفوسنا من الطيب؛ إذ تعشقها النفس وتسكن لها. كذا رغب أن يميل الدارسون إلى هذا اللون من العلم، كما ينتشون بالرائحة الزكية. وهذا لا يغيب عن بالنا، فكما قدمنا آنفاً أن الطبيعة بعمق روحانيتها الجمالية، سكبت في الإنسان سحرها ليستلهم هذه المعاني، ويحاول أن يخلدها بإضفائه لمحات من غلالتها على صيغه وتراكيبه.

وغدا المكان لدى أبي علي الفارسي (ت377هـ) عنواناً، فنراه يطلق عناوين نحو(المسائل البصريات، والبغداديات، والشيرازيات)، فاكتسى المكان لديه بخصوصية مميزة تدفعه للعنونة به. إنها شاهد حي على حضور المكان في ذهنه، فربما أراد بهذه العنونة ذكرى تلك الأماكن التي تفوح عليه نسائمها. وقد تكون هذه المسائل تفتقت في هذا المكان فأراد أن يحفظ له دوره في توجيه الرأي وسداده، فاكتنز العنوان بحمولات دلالية موحية، وفاض بحضور المكان الذي هو من ملامح الطبيعة.

إحالة العنونة إلى روح العصر

تُظهر العنونة في بعض المصنفات اللغوية ما كان يسود في ذلك العصر من مظاهر علمية، نحو ما نقرأه في (مجالس ثعلب) وأمالي ابن الشجري، وهي ما كان يمليها الشيخ لتلاميذه، فيقيدونها في دفاترهم، فصارت شاهدة على روح العصر العلمية.

وتمثل الفترة الواقعة ما بين القرن السابع والتاسع أخصب المراحل التي شاع فيها المتون العلمية، على غرار ما نجده من شرح ابن يعيش لمفصل الزمخشري، وشرح الرضي للكافية والشافية لابن الحاجب اللتين طبقتا الآفاق، وكذلك شرح كتاب جمع الجوامع للسيوطي في كتاب همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، إلى شروحات الألفية. وامتاز هذا العصر بتأليف المتون، ولا سيما في الأندلس، إذ ألف أبو موسى الجزولي المقدمة التي عرفت بقانون النحو، وشرحها ابن الخباز وأبو علي الشلوبين، وابن عصفور.

فكشفت العنونة ملمحاً من روح العصر العلمية، ولا غرو في هذا، فالمؤلفون يمتحون من بيئتهم، ويتأثرون بسجال المعرفة، وبالضرورة أن تترك هذه الإمارات بصماتها على العنونة.

لطائف لغوية في العنونة

لعل الناظر في عناوين المصنفات اللغوية يلمح بعض الإلماعات الأسلوبية، من ذلك اقتران التسميات بلفظة اللغة، نحو: البارع في اللغة للقالي، وتهذيب اللغة للأزهري والمحيط في اللغة - عن طريق الإضافة، والوصل بحرف الجر (في) وهما على معنى الظرفية، فتغدو اللغة الرسالة المطروحة في العنوان الذي هو سيمياء دالة على ما يحوي الكتاب من قضايا تعالج اللغة. وتراصفت العناوين الصرفية بلفظة الصرف أو التصريف، وربما قادهم إلى ذلك تخصيص هذا العلم بمؤلفات مختلفة بعد أن كان مختلطاً بالنحو، فلا يلتبس على المتلقي ماهيّة الكتاب، فيخلط بين النحو والصرف، فيكون العنوان المهاد الأولي للاندغام في الموضوع.

واختلفت الصيغ التي جاءت عليها العناوين ما بين المصدر في نحو العين والتهذيب. . . «وتُعَلَّل التسمية بالمصدر بما ينطوي على أجواء نفسية معينة، ويوحي بالمزج بين إيحاءات الأسماء مزجاً شديد الاقتران والاستدلال من أن تقوية الكلام بالتأكيد المصدري، وهو من علامات الحقيقة. . »[50]. ووظف اسم الفاعل، نحو: البارع والممتع، والزاهر والمزهِر، وفي استخدام هذه الصيغة التفات إلى الفاعلية والحركة القارتين في اسم الفاعل، مما يفجّر في العنوان طاقات إبداعية تشد القارئ، وتمنح المصنَّف قوة وحفاوة. ومن الملاحظ أن العديد من عناوين المصنفات جاءت بصيغة مركبة إلا ما ندر نحو كتاب (الكتاب) لسيبويه، والعين للخليل بن أحمد، والاشتقاق لابن دريد، والملاحن لابن فارس، والمعرّب للجواليقي، والفصيح لثعلب. . .، ولعل الصيغة المركبة في العنونة تسفر عن عوالمها التي تخوض فيها، مما يؤسس لفضاء تأويلي يُمكِّن المتلقي من استبار النص ولذة الكشف عنه.

وحملت بعض هذه العناوين صيغ الجموع، كالملاحن، والأضداد، والفروق، والعقود، والفصول، والدرر. . .، وذلك لما تتضمنه صيغ الجموع من «دلالة زائدة على دلالة المفرد والمثنى، وإنما هي هيآت وأحوال لمعانٍ خاصة، جُعلت للدلالة عليها تسميات كل بحسب ما يقتضيها مقامها. ويغلب على هذه الصيغ جمع التكسير الذي يفارق جمع السالمين اللذين تحددهما قواعد معروفة، بما فيها «لواحق» باتت أصلية فيها، أما هذا الجمع فليس يعتمد على لاحقة، كالجمع السالم، ذلك أن فلسفته تعتمد على التغيير الحركي والزيادة في داخل التركيب، وليس في الأواخر، كاللواحق. . . والحقيقة أن هذا الجمع - التكسير - مُدهش في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال النفسانية، وهي أعلى مراتب اللغة، مع الكمال فيما يختصُّ بالألفاظ، في انتقالها وجمال معانيها»[51].

وظهرت الصيغة الصرفية (تفعيل) في بعض المصنفات، نحو: التصريف الملوكي لابن جني، وتثقيف اللسان، وتلقيح الجنان، لابن مكي الصقلي، وشرح التعريف بضرورة التصريف لابن إياز، وكانت ترتبط بعض العناوين

بالتصريف، وفي هذه الصيغة لا ينتقل المسمى بها من المحسوس إلى المعقول، ليستبشر بحقيقته، ومن هذه الصيغة المصدرية يظهر لنا أن التسمية بها ليست قديمة، فهي تفيد الإحداث والانتقال بانتزاعها من الصور المحسوسة أصلاً، . . . فهي تتغير بهذه المعاني المنتزعة من أصولها الفعلية»[52] فالصيغة الصرفية (تفعيل) تغدو في العنونة سمة سيميائية، فهي إشارة يعبر بها عن قيمة جمالية توحي بتأثيرها في المتلقي، وتترك انطباعها فيه.

وتلفتنا في دائرة العنونة ظاهرة التعريف، فنقرأ المقصور والممدود، والتصريف الملوكي، والمنصف، وغيرها الكثير، وهذا يحقق بُعداً سيميائياً من حيث إنه مقابل الفكرة التي ترتبط - في الأغلب - بالمهمل وهذا ما يرغب عنه المؤلفون لمصنفاتهم، فهي إما معرَّفة بأل التعريف، أو بالإضافة، والأخيرة تعبِّرُ عن الاستغراق الذاتي (ذات الموضوع) فيرى في القسمة بها أبعاداً خاصة، في تصور القيمة الذاتية لهذه العنونة، وقوة الدلالة في كونها الموضوع المعني نفسه.

ونلحظ في العنونة - أحياناً - التكرار، وذلك تكرار للعنوان نفسه على نحو (الشافية) وشرح جمل الزجاج، . . . بما يشف عن روح المنافسة التي كانت بين المؤلفين، مما ساقهم إلى الاحتفاظ بالعنونة لتثير في المتلقي الاهتمام والعناية وقد يكون التكرار في نطاق العنونة نفسه نحو (ملامح الأرواح في شرح مراح الأرواح للعيني) فتكرار حرف الحاء بما فيه من الخفة وما يثير في النفس من الهدوء والسكون، كذلك تكرار ألف المد بما فيه من الانشراح والانبساط واللين.

خاتمة

انتهى بنا هذا التطواف في عوالم السيمياء والدراسات اللغوية إلى مجموعة من الأنظار:

- تمخضت السيميائية في فترة زمانية، حين التقت فيها أفكار الأوروبي سوسير والأمريكي بيرس، لهذا العلم، فعرف الأوروبيون السيمولوجيا، في حين عرفه الأمريكيون باسم السيميوطيقا.

- تعنى السيميائية بما هي علم بدراسة الإشارات والعلاقات باعتبارها دلائل تحوي خبرات مكثفة، فربطها سوسير بناحية اجتماعية، في حين ربطها بيرس بناحية منطقية. وقد رأى سوسير أن اللسانيات جزء من السيمياء، في حين رأى بيرس أنها جزء من اللسانيات. وقد أفضى الحال إلى إيجاد وظائف أيديولوجية واجتماعية واقتصادية.

- وفي محاولة شق الطريق للسيميائية واكتشاف أبعادها الحداثية، تراكمت عليها اتجاهات عديدة مثل سيميولوجيا الثقافة، والتواصل، والمادية، والرمزية...

- حظي العنوان بما هو إشارة وعلامة ذات أبعاد سيميائية دلالية بأهمية كبرى في التراث العربي، ولا سيما أنه يشمل أول لقاء بين المرسل والمتلقي، وهو أول ما يواجه المتلقي من النص، وهو العتبة لتأسيس وعي القارئ.

- لقد أشاد الدارسون بالوظائف المتعددة التي يمارسها العنوان في إطار الدراسات السيميائية، وبرز في علم اللغة النصي الذي يبحث في العلاقة بين المضمون والعنوان، ومن هنا يكتسب العنوان وظيفة أو قيمة سيميائية إشارية، بالإضافة إلى كونه يؤدي وظيفة تواصلية وتعينية.

- ويحمل العنوان باعتباره دالاً إيحاءات متنوعة شديدة الثراء، مما أدى ببعض الدارسين إلى اعتباره بطاقة تعريف الهوية للنص، ومن هنا نجد القدماء يعللون تسمية كتبهم بقولهم: «وسميناه بما رسمناه، ليكون مشاكلاً لاسمه...». وهم بهذا يؤكدون وظيفة الدلالة الإشارية للمضمون.

- أبرزت دراسة العنونة في المصنفات اللغوية عن العلاقة الجدلية التي تربط العنوان بمرجعيته الإحالية، ففي الوقت الذي نميل فيه إلى أن العنوان في حالة تواز شكلي أو دلالي مع مضمون الكتاب، أو في صورة إحالة مرجعية إليه، نجد أنه كثيراً ما يقيم العنوان قطيعة مع

المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد 97/25

إحالته المرجعية، مما يتعين مراوغة ومفاوضة لفك شفرته، وإعادة تصوره ضمن لعبة تفكيكية.

- تنفتح دلالة العنوان على العصر الذي وضعت به لتعبر عن روحه، وتكشف عن تجلياته، فيغدو العنوان إشارة دالة موحية.
- يتفاعل العنوان مع مجالاته الدالة عليه، مما يشعر المرء بالتناسق مع مضمونه.

الهوامش والمراجع

(1) حمداوي، جميل: "السيميوطيقا والعنونة"، الكويت: **مجلة عالم الفكر**، ج25، ع3، 1997م، ص79.

(2) دي سوسير، فرديناند: **علم اللغة العام**، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، العراق: بيت الموصل، 1988م، ص34.

(3) انظر: عبدالله الغذامي: **الخطيئة والتكفير**، جدة: النادي الأدبي، 1985م، ص48.

(4) بيرس تشارلز: **تصنيف العلامات**، ترجمة: فريال غزول، ضمن كتاب مدخل إلى السيميوطيقا، بإشراف: سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، مصر: دار إلياس العصرية، 1986م، ص137.

(5) تصنيف العلامات، ص142.

(6) السرغيني، محمد: «محاضرات في السيميولوجيا»، (د.ن) 1987م، ص8.

(7) دولودال، جيرار: **السيميائيات أو نظرية العلامات**، ترجمة: عبدالرحمن بوعلي، سورية: دار الحوار، 2004م، ص53.

(8) انظر: حنون مبارك: **دروس في السيميائيات**، الدار البيضاء: دار توبقال، 1987، ص82.

(9) بارت، رولان: **مبادئ في علم الأدلة**، ترجمة: محمد البكري، سورية: دار الحوار، ط2، 1987م، ص29-30.

(10) مبادئ علم الأدلة، ص68.

(11) دروس في السيميائيات، ص86.

(12) راي، وليم: **المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية**، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، بغداد: دار المأمون، 1987م، ص140.

(13) دروس في السيميائيات، ص89-91 (بتصرف).

(14) شولز، روبرت: **السيمياء والتأويل**، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994م، من ص15.

(15) السيميوطيقا والعنونة، ص84-96.

(16) ابن مالك، رشيد: **السيميائية، اصولها وقواعدها**، مراجعة: عزالدين مناصرة، الجزائر: منشورات الاختلاف، 2002م، ص38-39.

(17) ثامر، فاضل: **اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث**، الرباط - بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994م، ص7.

(18) - Bogand, Semiotics of cisual language, University press of California, Columbia and Princeton, 2002.

- Chandler, David, Semiotics: Bascics, Tayor & Francic, 2002.

- Crow, David, Semiology, AVA publishing Sa, 2003.

وحسين خريوش: **التسمية، ماهيتها وفلسفتها، وخصائصها الولالية**، إربد: منشورات جامعة اليرموك، 1991م.

وبسام قطّوس: **سيمياء العنوان**، عمّان: منشورات وزارة الثقافة، 2001م.

(19) السيميوطيقا والعنونة، ص98-99.

(20) مارتينيه، أندريه: **مبادئ الألسنية العامة**، ترجمة: ريمون رزق، بيروت: دار الحداثة، 1990م، ص223.

(21) سيمياء العنوان، ص49-50.

(22) العبد، محمد: **اللغة والإبداع الأدبي**، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1989م، ص48.

(23) سيمياء العنوان، ص50-52.

(24) بدري، عثمان: «وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث، قراءة تأويلية في نماذج منتخبة»، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، ع81، شتاء 2003م، ص36.

(25) البندنيجي: **معجم التقفية في اللغة**، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، بغداد: 1976م، ص40.

(26) ابن دريد: **جمهرة اللغة**، بيروت: مكتبة الثقافة الدينية، 1925م، ص40.

(27) الأزهري: **معجم تهذيب اللغة**، تحقيق: عبدالسلام صدوق وآخرين، القاهرة: 1964Ï í54Á

(28) أحمد بن فارس: **مجمل اللغة**، تحقيق: زهير عبدالمحسن سلطان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1986م، 75/1.

(29) الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، المقدمة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1980م.

(30) البستاني، بطرس: **محيط المحيط**، بيروت: 1870م، ص2.

(31) ابن فارس: **الصاحبي في فقه اللغة**، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت: مكتبة المعارف، 1993م، ص33.

(32) ابن فارس: **متخير الألفاظ**، تحقيق: هلال ناجي، بغداد: 1990م، ص63.

(33) ابن دريد: **الملاحن**، تحقيق: عبدالإله نبهان، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م، ص55-56.

(34) الثعالبي: **فقه اللغة وسر العربية**، تحقيق: سليمان سليم البواب، بيروت: دار الحكمة، 1989م، ص25.

(35) الجواليقي: **المعرّب**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط3، 1995م، ص3.

(36) المصري، أبو الربيع: **اتفاق المباني وافتراق المعاني**، تحقيق: يحيى عبدالرؤوف جبر، عمّان: دار عمار، 1985م، ص90.

(37) ابن جني: **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: عالم الكتب، 1988م، 1/1.

(38) الزمخشري: **المفصّل في صنعة الإعراب**، تحقيق: علي أبو ملحم، بيروت: دار مكتبة الهلال، 1993م، ص19-20.

(39) الإشبيلي، ابن عصفور: **الممتع الكبير في التصريف**، فخر الدين قباوة، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م، ص28.

(40) الأندلسي، أبو حيان: **المبدع في التصريف**، المقدمة، تحقيق: عبدالحميد السيد طلب، الكويت: مكتبة دار العروبة، 1983م.

(41) انظر: بن أحمد، الخليل: **كتاب العين**، المقدمة، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، إيران: دار الهجرة، 1405هـ.

(42) ابن منظور: **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط2، 1992م، 8/1.

(43) عبدالجليل، عبدالقادر: **المدارس المعجمية**، عمّان: دار صفاء، 1999م، ص170.

(44) لسان العرب، 41/4.

(45) الرازي، أبو حاتم: **كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية**، تعليق: حسين بن فيض الله الهمذاني، القاهرة: ط2، 1957م، ص58.

(46) ابن الأنباري، ابو بكر: **الزاهر في معاني كلمات الناس**، تحقيق: حاتم الضامن، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992م، ص3.

(47) أبو الطيب اللغوي: **شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة**، تحقيق: محمد عبدالجواد، مصر: دار المعارف، ط2 (د.ت)، ص61-66.

(48) القاموس المحيط، مادة «جيم».

(49) الحملاوي، أحمد: **شذا العَرف في فن الصرف**، بيروت: دار الفكر، 1991م، ص7-8.

(50) حسين خريوش: التسمية، ص92.

(51) التسمية، ص76.

(52) التسمية، ص7.

❋ ❋ ❋